

على ظهر النيل

تقتضب الكلام الآتي من كتاب رحلة بهذا العنوان للفاضل الالمعي والكاتب المتقن اللوذعي أحمد زكي بك الشهير صاحب كتاب السفر الى المؤتمر وقد خرج للسياحة وترويح النفس على ظهر النيل فكتب في ذلك ما لقنه خاطره الواسع من وصف ما شاهد في تلك الرحلة وما عن لعين بصيرته من لطيف المعاني . قال حفظه الله من كلام

... نعم هو النيل الذي لم يبق لي ولا لغيري مجال للاخبار عنه والتعريف به . قد سبق السابقون من بني مصر وهم السابقون في مضمار الفضل والنبل والمجلون في حلبة الاختراع والابداع قدسوه حتى جعلوه الها منحصونه بأجل العبادات ويتحفونه بالضحايا ويتقربون اليه بالقربان والقربات فلم يتركوا من غرض يتوخاه الوصافون او منزى يكشف عنه المعبرون اذ ليس بعد التائب من تشبيه ثم جاءت العرب من بعدهم فجزموا بانه ملك قد بسط ذراعيه على البلاد بل ملك وافي من الفردوس يحمل روح الجنة الى العباد وليس وراء ذلك لواصف مقال ولا لمدح مجال

يتقاطر الناس من اقصى الجوانب ويتوافدون من المشرق والمغرب ويبدلون في سيل الوصول الى هذا الوادي البهيج كل مرتخص وغال ليقفوا على شيء من محاسن بلادنا ويمحوزوا اثرا من آثار أجدادنا فيرسلون اشعة ابصارهم فيما لم يبرح بين ايدينا واعيننا اعصارا طوالا وهم في واد ونحن في واد هم في وادي النيل ونحن في وادي الاضاليل ثم يعودون الى اوطانهم وقد استفاد المؤرخ والعالم واتفع الصانع والتاجر ونحن جاهلون بما استنبطوه من

جائيل الآثار والعبر ذاهلون عما استفادوه من بديع الصناعة وقيس الحكم
لا نعلم لما تركه اسلافنا الاولون قيمة ولا نفعا حتى يتفضل اولئك الاجانب
بارشادنا اليه ويأخذوا اجرهم اضعا فاضاعفة من ثناء ينهال عليهم انهيلا
وغير معتزون به تيبا ويتيهون به اخيالا مع انسان نحن اصحاب الدار غير
اننا قد تماهدنا على تكذيب المثل السيار وبتنا ونحن اجمل الناس بما لدينا
من تلك الآثار

السنا نرى فيان مصر كلما اصابته من التمدن الحديث فحة او اصابوا
من العرفان المصري مسحة اشترأت اعناقهم الى اوربا فاصبحوا وايها كصاحب
الحاجة الارعن لا يرعى سواها ولا يطلب الا قضاها ولا يحلم الا بها ولا
يستيقظ الا بذكرها فاذا ساعدتم المقدور وتيسرت لهم الامور هرعوا اليها
سراعا وتهاطروا اليها تباعا وربما كان اكثرهم لم ير الاهرام وهي اليه اقرب
من جبل الوريد بل اذا اتيج له رؤيتها اكنى بارسال النظر اليها من بعيد ولم
يقف عند قاعدتها يتأمل تلك الجبال القائمة من حجر الصوان حيث لا جبال
الا جبال الرمال ولم يصعد الى قمته يرسل بصره فيما تحت قدميه من المنظر
البديع المثال وتري الواحد منهم اذا رجع من اوربا عاد وهو يتحدث نفسه
ويحدث جيرانه بما رآه من عجائب الامور وغرائب السموع والمنظور وهو
لا يكاد يعرف شيئا من كنوز بلاد التي هي اشرف شيء في المعمور بل لا
يشعر بوجود ما حوله من الذخائر الاسلامية الباهرة والعمائر العربية الفاخرة
التي ازدانت بها مدينة القاهرة

اقول هذا الكلام وانا اعترف امام الله وامام الانام بانني احق ابناء
بلاد هذا الملام ولكن الحسنات يذهبن السيئات فسي ان يتنبه لقولي

من يصل اليه ندائي وعندي انه ليس افضل ممن لم يكن له الا حسنات يتلوها حسنات . ولقد نبهني ضميري ودعاني وجداني الى خوض عباب هذا الموضوع بينما كانت الباخرة تخوض عباب النيل وقد حوت تسعة وخمسين سياحاً وسياحةً غالبيتهم من الانكليز والاميركان ولم يكن بينهم من المصريين سوى طربوشين خلاف طربوشي ...

مشينا في النيل ونحن لا نكاد نجد الوقت الكافي للتمتع بالمناظر الشائعة التي كانت تجلّ امام اعيننا ذات اليمين وذات الشمال فلهذا السحر الحلال بل لله درّ هذا الوادي الذي لا يفي بوصفه قلم البليغ وانما يجوز على مخيلة الشعراء ان تصوّره بكل ما هو آية في الجمال فانهم في كل وادٍ يهيمنون فكيف لا يهيمنون في وادي النيل الذي قد اجتمع فيه التقيضان واصطلح عنده المتخصصان فينا ترى ضفته الشرقية بشرف عليها الجبل المقطم ويرسل اليها النظرات متابعات وهو عليها غيورٌ شفيق وبها كلفٌ مفرم وقد جعل نفسه ترساً يقي مزارعها البديعة واراضيها المريمة من هجمات الطبيعة اذا بالصفة الغربية وهي متوشحة برياضها وادغالها ولكن الرمال غارت من جمالها فاغارت عليها بجبالها فاشبهت الغلام حينما يهجم فيمحو الضياء او الحمام اذا انقضّ قوّض اركان البقاء لذلك تنبه الاول من آل مصر لصدّ هجمات هذا العدو المبين والمغير المستديم فاقاموا على حافة صحراء لوبية (الصحراء الغربية) نواطير وارصاداً من الاهرام المتوالية المتقاطرة وكلها كخطّ دفاع اقامه امير القواد من الجنود البواسل فاصبحت حرزاً حصيناً لوقاية هذا السهل الخصب من انهيار الرمال بحيث اذا فاجأ احدها الخطر تنبه اليه ونبه اقرب الاهرام عليه فيتصل الصرخ ويتوالى النفير وبهذه المثابة بقيت الرمال واقفة على قدم المهابة والاحترام تدفها الرياح

فقصدها الاهرام فلذلك تراها لا تزال متأهبة للوثوب في كل آن مترقة
فرصة للهجوم وهيبات ان يقع ذلك منها في الامكان

الحرب

الحرب مناجزة المتخاصمين بالاسلح طمعاً في جرّ منعم او دفماً لفرم
فهي هجوم ودفاع وسطوة وامتناع فطر عليها الانسان لما في طبعه من
الاثرة والعدوان ونزعت اليها القبائل والممالك في كل زمان ومكان على ما
يصحبها من نهب الاعمار وهدر الدماء واستباحة الدمار وجوانح البلاء
وما تجرّ وراءها من البوار والدمار وتخريب الديار والجوع والوباء وجميع
ضروب الشقاء فهي اعظم الخطوب الملة بالسلائل البشرية واشد المصائب
على الحالة المدنية بل هي اكبر جنسية اقترفها الانسان ضد نفسه وتمدها
لهلاك ابناء جنسه على ان قوماً لا يرون فيها الا العدالة يسان بها الدمار
والعزة تحمي بها الممالك والامصار والافقة من احتمال مذلة الضيم والعار
والقوة التي يتمتع بها الجار على الجار وقد كتبت على الناس مكرهين وربما جعلت
فرضاً من فروض الدين ولم تزل الامم تعظم شأن الابطال وتقيم الانصاب
للذين غلبوا في ساحة القتال تحليداً للذكور واجلالاً لتقدمهم قال ابو الطيب
لا يسل الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
وقال

أعلى الممالك ما يبنى على الاسل والطعن عند محييين كالقمل
وما تقرّ سيف في ممالكها حتى تقلّ دهرًا قبل في القل